

أهمية الحديث النبوي في مواجهة تحديات العصر ومكانته في حياة المسلمين

✍️ الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي^١

إن حياة المسلم الملتزمة بمبادئ دينه مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بكتاب الله تعالى، وتوجيهات رسوله الكريم ﷺ وهذه التوجيهات تأتي من التراث القولي والعملي الذي بقي محفوظاً بأمانة ودقة في كتب الحديث الشريف الذي دوّنه وحفظه أئمة الدين الإسلامي الثقات، واشتمل على جوانب حياة الرسول ﷺ المتنوعة.

فقد عاش الرسول ﷺ في أحواله المختلفة مما يمر من خلالها أكثر الناس في حياتهم البشرية، وكان مطبقاً لما ورد في كتاب الله تعالى من هداية وتزكية، وما كان ينزل عليه من وحي ربه رب العالمين، وجعله الله تعالى أسوة للعبد المؤمن المطيع لربه، وأمر المسلمين جميعاً أن يتخذوه أسوة لهم وقدوة في أحوال حياتهم، فإنه لا تصلح حياة المؤمن إلا بالتمسك بهذه الأسوة الكريمة قولاً كان أو عملاً، فقد ورد في كلام الله تعالى عنه: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)^٢، وقد جاء أيضاً: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ)^٣.

^١ رئيس دارالعلوم لندوة العلماء، لكنؤ (الهند)، ونائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض).

^٢ الأحزاب: ٢١.

^٣ النجم: ٣-٤.

وإن كلام الله تعالى في كتابه هو وحي متلو، أما قول رسول الله ﷺ الذي ورد في حديثه فهو بمثابة وحي أيضاً، ولكن غير متلو، وكلا الكلامين يضع لنا قانوناً شاملاً لحياة المسلم، ولقد ضمن الله تعالى بحفظ كلامه جل وعلا، وذلك بقوله: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)^١. وضمان الله تعالى بحفظ كتابه هو في الأصل ضمان لحفظ دينه الذي أكمله الله تعالى على نبيه الأخير محمد ﷺ، فأصبحت مبادئ هذا الدين ثابتة مقررّة، وأصبح الدين بذلك كاملاً لا يتغير، وباقياً إلى يوم القيامة للعمل به، حينما نجد أن الأديان الأخرى التي جاءت قبل الإسلام قد تغيرت، لأن الكتب التي جاءت معها تغيرت بسبب عدم اعتناء حملتها بما بعد حياة أنبيائها.

وإذا كان الدين الإسلامي يأخذ مبادئه من كتاب الله تعالى فإنه يأخذ التفصيل والإيضاح من سنة رسوله ﷺ، وإرشاداته الموضحة، فتقرر أن الذي جاء في كتاب الله تعالى، والذي جاء في حديث رسول الله ﷺ، كلاهما ينيران طريق الهداية والإرشاد في مجالات الدين، ويؤديان غرضاً أساسياً في تبين سمات الحياة الإسلامية الرشيدة، وترشيد العمل الديني، كما أنهما يحيطان بأطراف حياة المسلم في كل زمان ومكان. والحديث الشريف بسعته ووفرة مادته يؤدي ما تقتضيه حياة المسلم من ترشيدها واستقامتها في أدوار الزمن المختلفة، وحالات الإنسان المتنوعة، وبذلك يستطيع الكلام النبوي الشريف أن يقبل التحديات المختلفة لتطور الزمان وتنوع أحوال الإنسان، فإنه ليس أمراً قديماً يركد ركود الماء الآسن، وليس أمراً جديداً حدة تزيله عن أسسه ومبادئه القويمة، وهي التي قررها كتاب الله تعالى، وأوضحها وأكد على ثباتها حديث رسول الله ﷺ. الصادق الأمين.

والدين الإسلامي دين اختلف عن الأديان السماوية الأخرى، وذلك من جهتين: أولاهما: أنه يحيط بجميع جوانب الحياة الإنسانية وأحوالها الفردية كانت أو اجتماعية مثل ما هي خاصة بالفرد الإنساني يقوم به في إطار ذاته وأعمال

^١ الحجر: ٩.

لنفسه، ومثل ما هي عامة يقوم به مع الناس من معاملات سلوكية واجتماعية.

أما الجهة الأخرى من اختلافه عن الأديان الأخرى فهو: أنه دين اكتمل وتم فلم يعد يقتضي في شأنه إلى أي تغيير أو تبديل. أما بالنسبة إلى الجهة الأولى وهي إحاطته الشاملة لكافة أحوال الحياة الإنسانية؛ فهو يتضمن لتعليمات وأحكام دقيقة وجليلة كليهما، حتى تعجب بعض أهل الأديان الأخرى على هذه الإحاطة الواسعة لأنحاء الحياة في الإسلام، فقد قال بعض المشركين لسلمان الفارسي عليه السلام: قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخِزَاءة!، قال سلمان: "أجل، نمانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، وأن نستنجي باليمين، أو يستنجي أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو يعظم"^١.

فإن الإسلام يحيط بجوانب مختلفة من حياتنا، ويدلنا على أحسن طريق في أحوالنا الفردية والعائلية والاجتماعية، وأوفقها لحاجتنا الاجتماعية والمدنية، وجاءت تعليمات وتوجيهات واضحة في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمرنا الله تعالى باتباعه، فقد ورد في القرآن الكريم: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)^٢، وورد: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)^٣؛ وذلك لأن القرآن الكريم كتاب دعوة وهداية وتزكية كذلك، وليس كتاب قانون وحده حتى يقصر بيانه بأجزاء الأحكام الإسلامية وحدها، ولو جمع القرآن جميع قوانين الحياة مما يكون المطلوب منها العمل بها في الحياة لأصبح ضخماً جداً ومقصوراً في نطاق الشؤون القانونية وحدها، كما تكون كتب القوانين، فإن أمره ليس هكذا، ولذلك اكتفى القرآن الكريم

^١ أخرجه الترمذي في جامعهم، في أبواب الطهارة، باب الاستنجاء بالحجارة، برقم: (١٦).

^٢ الأحزاب: ٢١.

^٣ الحشر: ٧.

بيان المهمات والدعائم لقوانين الحياة الإسلامية، وتناول جوانب أخرى مما هو المطلوب من القرآن الكريم، ألا ترى أنه جاء عن عبادة الصلاة: (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ)¹، وقرر الرسول ﷺ وحدد الصلوات الخمس أوقاتها، وهي تندرج كلها في ما بعد دلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر، ولكن الرسول ﷺ تلقى هذه التحديات مما أوحى إليه في الإسراء، وعن طريق رسول الله إليه جبريل عليه السلام، وكذلك التحديات في نصاب الزكاة وبيان كيفية العمل في الصيام والزكاة والحج.

وبذلك احتاج المسلمون إلى التوجيهات الصادرة من الرسول ﷺ، سواء كانت قولية أو عملية أو تقريرية، وبناءً على ذلك يتقرر لهذه التوجيهات أنها عمود أساسي واسع للدين الإسلامي. ولما أراد الله تعالى أن يبقى هذا الدين إلى آخر الزمان وقد اكتمل وتم؛ قرّر له كلام الرسول ﷺ وتوجيهاته، ولما قرر لهذا الدين أن يبقى بكماله وتمامه بدون نقص وتخوير؛ قدّر لصيانيته وشرح أحكامه وإرشاداته أئمة أعلاماً في معرفة أحاديث الرسول ﷺ محققين مخلصين أمناء ليصونوه عن عبث عابث فيه، وحفظه وصيانيته عن المختالين لتغييره وطمسه، وقد أدى هؤلاء الأئمة الأعلام عملاً جليلاً يبحث وتنقيح شديدين بأمانة كاملة، وأوضحوا ما هو صحيح نقي منها، وما تعرض منه لشيء لا يوثق به كل الثقة، فحفظوا بذلك أحكام الدين التي علّمنا رسول الله ﷺ عن طريق صحابته رضي الله عنه، وذلك بقوله في حجة الوداع: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»²، وقال أيضاً: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئاً فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مَبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»³، وقال ﷺ في شأن أخذ الاحتياط في تبليغ أحاديثه إلى الآخرين: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»

¹ الإسراء: ٧٨.

² أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم: (٣٤٦١).

³ أخرجه الترمذي في جامعه، في أبواب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، برقم: (٢٦٥٦).

١؛ ولذلك نرى أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يخافون أشد خوف من أن يتحدثوا عن رسول الله ﷺ إلا بعد ما كانوا يثقون كل ثقة بأن القول هو قول رسول الله ﷺ بدون شك. وبذلك أصبحت حياة المسلم مستندة ومؤيدة بالأحكام الدينية المنبثقة من كتاب الله تعالى، وحديث رسوله العظيم ﷺ، قام بإسنادها وتأيدها صحابة الرسول ﷺ، ثم ما تلاهم وتبعهم من علماء الأمة الإسلامية الأعلام الأمناء المخلصون، وكان عملهم أوسع مجالاً، وأكثر تفصيلاً وإيضاحاً. لقد أدى الرعي الأول منهم مسؤوليته في نقل ذلك إلى القادمين، ولم يقع كل ذلك بصورة هينة غير مضبوطة، بل إنما وقع بسعي بليغ ودقة وأمانة شديتين في النقل والإبلاغ؛ وبذلك قدّر الله تعالى لهذا الدين الذي أوجبه على البشر السلامة من أي تبديل أو تحوير، والبقاء للناس إلى آخر الزمان للعمل به، ولما قرر الله تعالى ذلك هياً له الأسباب المطلوبة، كما قرر في أحكام هذا الدين ما يحل مشكلات ناجمة في حياة البشر بحكم تطور الحياة وتغير الأحوال لثلاث يبرز سؤال: كيف نعمل بسبب عدم وضوح في ظاهر حكم إسلامي عند تغير الأحوال.

وقد رأينا وقد مضت على بزوغ شمس الإسلام أكثر من أربعة عشر قرناً أن أحكام الدين الإسلامي لم تعجز في أي حال من أحوال الحياة المتطورة والمتجددة رغم أن هذا الدين قد تقرر في عهده الأول عندما كانت الأمة تعيش في البدايات، وبعيدة عن التعليم والكتب؛ وكان رسول الله ﷺ الذي نزل عليه القرآن، ووقعت عليه مسؤولية تبليغ الدين وإيضاحه؛ لم يتلقَ علماً إلا بالقرآن وحده، النازل إليه من عند ربه، وقام رسول الله ﷺ على أساس الوحي من الله تعالى بتوسيع علمه الدعوي والتربوي، واتسع نجاحه وفتوحه حتى وصل الإسلام إلى بلدان كانت قد قطعت أشواطاً في العلم والمدنية والسياسة والاقتصاد، وغلب على هذه المدنات، فوقع لها تحدياً كبير منها، ولكن لم يعجز نظام الإسلام في أي جانب من جوانب الحياة العالمية الواسعة من تحقيق متطلباتها لإخراج الناس من أحوال الفساد، وإعطائهم بديلاً حسناً ذا رقي وعلم وتمدن، وذلك عن طريق أولئك

١ أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، برقم: (٣).

الرجال الذين عكفوا على دراسة كتاب الله وسنة نبيه العظيم، فحينما نستعرض ما شرحه واستنبطه علماء الإسلام، وقد احتكوا واتصلوا بالحضارات المجاورة والعلوم الواسعة التي عالجها علماء تلك البلدان المتمدنة المجاورة؛ نجد ما قاموا به أضخم وأوسع عمل، فقد التقطوا من القرآن والحديث حلاً لكل ما تتطلبه الحياة الراقية المنتشعة الجوانب من الحل، وبه قامت حضارة إسلامية راقية أمام حضارة سائدة لدى الأمم الأخرى، وبذلك قامت أمام مدنيات سائدة مدنية إسلامية عملاقة، وكانت مدينة الإسلام تابعة للأسس الأصيلة التي وضعها كتاب الله، وشرحتها وأوضحتها سنة رسوله ﷺ.

ولما كان الإسلام قد قبل التحدي العظيم في بداية عهده، وكان تحدياً عظيماً بناءً على الفرق الواسع بين العجم الراقي بمدنياتهم وبين العرب الأميين، وأعطى الإسلام الحل المقنع عند مخالطة المسلمين البدويين السذج بحضارات طُبخت في قرون زاهرة لليونان والرومان والساسان والهند، ولم يعجز عن مواجهة تحديات ذلك العهد، بل قام على توجيهات رسوله الأمين وتوجيهاته المرشدة عن طريق أحاديثه ﷺ، وقام بترشيد الحياة وترسيخ قواعد الحياة الإنسانية الربانية الخالدة.

فلما كان الإسلام لم يعجز في ذلك العهد الغني بالثقافات الزاهرة وأطوار الحياة المتنوعة؛ فكيف يعجز في هذا العهد الحضاري الجديد الذي أصبح مسلحاً بأدوات الدمار الشامل، وحاملاً لأسباب تذويب للقيم الإنسانية الرفيعة، بل إنما يصبح الحديث النبوي الشريف أكبر ذريعة لحل أزمات الحياة الراهنة، وأجدى دواء لشفاء الإنسان من الأضرار التي أوقعته فيها الدنية الغربية الراهنة.

ولقد شمل حديث الرسول ﷺ كل أنحاء الحياة الإنسانية، وحمل هداية الإنسان إلى ما هو أصوب وأليق بإنسانيته، ولقد وجدنا في تاريخ الأديان أن النطاق الديني فيها يبقى محدوداً بصورة عامة، قاصراً بالعقيدة والعبادة وحدهما، ولا تهتم هذه الأديان اهتماماً بغيرهما من السداد والصواب في كافة جوانب السيرة ومناهج الحياة، ولكن الدين

الإسلامي جاء أشمل وأجمع لكافة الأنحاء، وهو منبثق من كتاب الله تعالى المنزل على آخر رسله ﷺ، ومفصلاً تفصيلاً شاملاً وجامعاً عن طريق حديث رسول الله ﷺ.

ومنهج السيرة الأقوم هو هدف هذا الدين، ونجد الحديث النبوي شاملاً لهذا المنهج الكريم في جميع أنحاء الحياة الإنسانية، ويدل عليه التنوع الذي حمله الحديث النبوي في إرشاد الناس، ومثال ذلك ما جاء في حديث لرسول الله ﷺ: أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله، فقال: «أما في بيتك شيء؟» قال: بلى، جِلسٌ^١ نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقَعْبُ نشرب فيه من الماء، قال: «اثني بهما»، قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: «من يشتري هذين؟»، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال: «اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قُدُوماً فأتني به»، فأتاه به، فشَدَّ فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده، ثم قال له: «اذهب فاحتطب وبيع، ولا أرينك خمسة عشرة يوماً»، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير لك من أن تحيى المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفطع، أو لذي دم موجع»^٢.

وبذلك دلَّ النبي ﷺ على: أن المسلم يجب عليه أن لا يكون عائلاً على غيره فيتكفف أمام الناس، بل عليه أن يسعى ويجتهد للكسب بطرق حاصلة له، وحمل هذا الحديث موعظة وإرشاداً إلى اختيار حياة الشرف والكرامة، وإلى اختيار وسائل الوصول إليها، كما دل على جواز هذا النوع من البيع.

ولقد شرح رسول الله ﷺ أمر التوكل على الله بأنه ليس انقطاعاً عن اختيار الوسائل اللائقة في شأن ما يفيد الإنسان، فقد قال ﷺ لحفظ الإبل من الضياع والهروب: «اعقلها

^١ هو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب.

^٢ أخرجه أبو داود في مسنده، في كتاب الزكاة، باب في الاستعفاف، برقم: (١٦٤١).

وتوكل»^١، يعني: يجب أولاً أن يختار المسلم الوسائل المجدية لحفظ الشيء ثم يتوكل على الله أن لا يضيع جهده.

وكذلك نرى أن رسول الله ﷺ قد أوصى بأمور لم يهتد أهل الفكر والقيادة إليها إلا بعده بزمان طويل، ومن ذلك أنه ﷺ أمر بالمساواة الإنسانية التي كان الناس يهدرونها بصورة شاملة، فقد قرّر أن كل فرد من أفراد الإنسان مساو لفرد آخر، فلا يجوز الفرق بين إنسان وإنسان، ولا بين أسود وأبيض، ولا بين غني وفقير، وبين أمير وعامي، إلا إذا كان أكثر من غيره في أعمال الخير، فقد قال: «ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»^٢، مع أنه ﷺ كان من أشرف قبيلة في العرب، وكان العرب يرون في فروق النسب شرفاً وذلة، ومع ذلك قام بنفي ذلك، وكان يساوي بين شريف عربي وبين أسود حبشي، وأما الآخرون من أبناء الأمم الأخرى فقد استمروا على تقسيم الناس بين شريف ووضع على أساس اللون والوطن والنسب إلى القرون الأخيرة، ولم يتشجع أصحاب القيادة والفكر منهم على قبول مبدأ المساواة إلا أخيراً جداً، وذلك على مبدأ أعلن به رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرناً، وجرى المسلمون عليه، فكّم من ملوك وسلاطين في الإسلام كانوا أرقاء عبيداً حرّهم سادتهم، ووصل عدد منهم إلى الملوكية والحكم والسيادة، وقبلهم المسلمون، ونالوا نفس الاحترام الذي كان يناله سادتهم في مناصب سيادتهم.

وكذلك أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالإحسان إلى الأرقاء وهم الذين كان يلحقهم الرق عند هزيمتهم في الحروب ووقوعهم في الأسر، وكان ذلك عادة متبعة لدى الجميع، فقرر رسول الله ﷺ أسباباً عديدة لتحريرهم من الرق، وجعل تحريرهم دريعة للفضيلة الدينية ينال صاحبها عليها أجراً من الله تعالى، فقال ﷺ: «من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاهة

^١ أخرجه الحاكم في المستدرک علی الصحيحین، (٧٢٢/٣)، برقم: (٢٢١٤) و(٦٦١٦).

^٢ أخرجه الإمام أحمد في مسنده، برقم: (٢٣٤٨٩).

من النار عضواً بعضو»^١، وأمر - عليه الصلاة والسلام- للأرقاء ما داموا لم يتحرروا من الرق بالإحسان إليهم، وهذا الخير الإنساني لم يحصل لغير المسلمين في العالم إلا قبل يومنا هذا بقليل.

وكذلك أوصى رسول الله ﷺ بالنساء خيراً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه؛ كسرته، وإن تركته؛ لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»^٢. وذلك في حين أن العالم بجميع بقاعه كان الناس فيه يعاملون أزواجهم ونساءهم شر معاملة، ولم يتنبهوا لعييهم هذا إلا في الزمن الأخير، ومع ذلك لم يقوموا إلا بتقرير ظواهر سطحية لإكرام المرأة. أما الإسلام فقد وضع قانوناً واسعاً فيه كرامة المرأة في كل أحوالها وأطوارها، عندما تكون بنتاً صبية، وعندما تكون شابة باكرة، وعندما تكون زوجة، وعندما تكون أمّاً، وعندما تكون أيمّاً وعجوزاً. ولم يجعل الإسلام بعض القيود على الاختلاط الحر بين الجنسين إلا حفاظاً على الكرامة النسوية للمرأة؛ لأن الرجل على أساس تفوقه في القوة عليها يتلمس الفرصة لاستغلال ضعفها في الدفاع عن عرضها.

على كل... فإننا نجد أمة رائعة لكفاية الحديث النبوي الشريف لمقتضياتنا المعقولة للحياة، وكذلك لتقديمه الحلول للمشاكل الطارئة والمتجددة في الحياة يمكن اقتباسها من آثار الرسول ﷺ وأحاديثه الشريفة، فالحديث النبوي يعطي حلولاً ناجعة لتحديات مختلفة تأتي في الحياة الإنسانية، ولا يعجز عن التوجيه والإرشاد فيها مهما تغير الزمان والمكان.

وذلك بعدما أنزل الله عليه كتابه، ووضع فيه مبادئ هذا الدين الخالد وقوانينه الأساسية، فقد أنزل الله عليه كتابه بالوحي الذي كان يأتي به رسوله جبريل عليه السلام، وأرسل الله إليه وحياً آخر في كثير من الأمور، وكان مما لم يدخله في كتابه، وأخبرنا به

^١ أخرجه الإمام أحمد في مسنده، برقم: (١٩٤٤١).

^٢ أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، برقم: (٣٣٣١).

رسول الله ﷺ بحديثه الشريف، وقرر الله تعالى لرسوله أن يكون أسوة يقتدى به من أبناء الملة الإسلامية، وبذلك أصبح حديث رسول الله ﷺ وسنته مصدراً للهداية في كل ما تقتضيه الحياة، ومرجعاً لحل كل ما يتجدد من القضايا، وذلك عن طريق أولئك العلماء الذين أحرزوا من فهمهم لمعاني كتاب الله، وحديث رسوله ﷺ، ما يكفيهم في شرح ما يتعسر الوصول إليه لعامة الناس، وعن طريقهم وبجهودهم المدركة لمفاهيم الدين الإسلامي يتصدى الحديث النبوي الشريف للتحديات.

ويشهد التاريخ بأن هذا النموذج المطلوب لعلماء الدين الأعلام؛ وُجد في كل عصر بل في كل قطر من الأقطار الإسلامية، وأنهم ما أدوا دوراً رائعاً في مجال ما اقتضاه العصر والمكان، وهم حفظ الله تعالى كتابه ودينه، وهم جعل الله تعالى كتابه منبع هداية وإسعاف ديني، وجعل حديث الرسول ﷺ بياناً وهدايةً إلى الحلول الناجعة في ما اقتضته ظروف الإنسان المتغيرة والمتطورة.

فكلما احتفى المسلمون بحمى الحديث النبوي الشريف استقامت سيرتهم، وصح طريقهم، وكلما تماونوا في الاحتماء به اختلط أمرهم الديني بأحوال لا سند لها مما أوحى الله به لعباده، يشير الشيخ أبو الحسن الندوي⁵ إلى هذه الناحية بقوله: "ويشهد بهذه الحقيقة تاريخ الإسلام والمسلمين نفسه، فكلما ضعفت صلتهم بكتب الحديث والسنة ومعرفتهم بها - على كثرة وجود الدعاة إلى الله، والمشتغلين بتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق، والزهد في الدنيا - والعمل بالسنة، وطالت هذه الفترة؛ عزت المجتمع الإسلامي - الزاخر بأصحاب الاختصاص في العلوم الإسلامية، المتبحرين في العلوم الحكيمة والأدبية، وفي عهد غلبة الإسلام وحكم المسلمين - بدع طريفة وتقاليد عجمية، وأعراف دخيلة، حتى يكاد يكون نسخة من مجتمع جاهلي، وصدقت النبوة المحمدية، والحديث

الصحيح: «لتركبن سنن من كان قبلكم شيراً بشيراً وذراعاً بذراعاً»^١، وحفت صوت الإصلاح، وخبأ مصباح العلم^٢.

وجاء في إحدى كتاباته، يقول: "إن الحديث زاخر بالحياة، والقوة، والتأثير الذي لم يزل يبعث على الإصلاح والتجديد، ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع، وحسبة المجتمع، ولم يزل يظهر بتأثيره في كل عصر وبلد من رفع راية الإصلاح والتجديد، وحارب البدع والخرافات، والعادات الجاهلية، ودعا إلى الدين الخالص والإسلام الصحيح؛ لذلك كله كان الحديث من حاجات هذه الأمة الأساسية، وكان لا بد من تقييده وتسجيله وحفظه ونشره، وقد ظلت كتب السنة والحديث - ولا تزال - مصدراً من مصادر الإصلاح والتجديد والتفكير الإسلامي الصحيح في الأمة الإسلامية، تلقى منه الصالحون في عصورهم العلم الديني الصحيح، والفكر الإسلامي النقي، واحتجوا بأحاديثه، واستندوا إليها في دعواتهم إلى الدين والإصلاح، وفي محاربتهم للبدع والفتن والفساد، ولا يستغني عن هذا المصدر كل من يريد إرجاع المسلمين في عصره إلى الدين الخالص والإسلام الكامل، ويريد أن يوجد صلة بينهم وبين الحياة النبوية، والأسوة الكاملة، وكل من تلجئه الحاجة وتطورات العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة"^٣.

"والحديث ميزان عادل يستطيع المصلحون في كل عصر أن يزنوا فيه أعمال الأمة وانجهاها، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة، ولا يتأتى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث الذي هو يملأ الفراغ الذي وقع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى"^٤.

^١ أخرجه الحاكم في المستدرک علی الصحیحین، (٥٠٢/٤)، وابن أبي شیبة في المصنف، (٤٧٩/٧)، برقم (٣٧٣٧٥)،

وأحمد في المستند، (٢٤٠/٥)، والطبرانی في المعجم الكبير، (٢٤٤/٣)، برقم: (٣٢٩١).

^٢ الندوي، أبو الحسن علي الحسيني، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ج ٤، ٥٣٧-٥٣٨.

^٣ الندوي، أبو الحسن علي الحسيني، المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف، ص ٢٣.

^٤ الندوي، أبو الحسن علي الحسيني، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ج ١، ص ١٣١.

"فلولا الحديث الذي يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة، ولولا التوجيهات النبوية الحكيمة، ولولا هذه الأحكام التي أخذ بها الرسول المجتمع الإسلامي؛ لوقعت هذه الأمة في إفراط وتفريط، واختل الاتزان، وفقد المثال العملي الذي حث الله على الاقتداء به بقوله: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)¹، وبقوله: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)². والذي يطلبه الإنسان ويستمد منه الثقة والقوة في الحياة، ويقتنع بأن تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسور وواقع"³.

والواقع أن وقائع حياة النبي ﷺ المباركة، وإرشاداته، وتعاليمه تخلق ذلك الجو الذي تخضر فيه شجرة الدين وتورق وتثمر، إن الدين ليس مجموعة من الضوابط الخلقية الحافية، إنه لا يبقى حياً بدون العواطف الروح والوقائع العملية، وخير مجموعة موثوق بها لهذه العواطف والوقائع والأمثلة العملية هي مجموعة الحديث النبوي الذي أصبحت من خصائص الأمة الإسلامية التي لا يشاركها فيها أمة من أمم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأصحاب ديانة من الديانات السماوية التي لا يزال بقايا أتباعها والمنتمين إليها على اختلاف أنواعهم ومستوياتهم على وجه الأرض⁴.

وذلك لأن الدين الإسلامي دين أكمله الله تعالى على آخر أنبيائه ﷺ هو دين شرعه الله تعالى للإنسان، وهو يعرف طبيعة هذا الإنسان، فقد خلقه وقدر حياته، وعنده علم للماضي والمستقبل لأحوال الدنيا وأطوار الحياة الإنسانية، ولكل زمان ولكل الأجيال، وبذلك يتقرر أن الدين الذي شرعه هو دين يتفق لكل الأحوال، وقد ثبت ذلك ثبوتاً عملياً في التاريخ الماضي، فكلما مر هذا الدين من خلال تحديات مختلفة؛ لجأ علماء هذا الدين إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فتوصلوا إلى حلول ناجعة لها، ولم يعجزوا أما نظم

¹ الأحزاب: ٢١.

² آل عمران: ٣١.

³ الندوي، أبو الحسن علي الحسيني، المدخل إلى دراسات الحديث النبوي، ص ٢٤.

⁴ الندوي، أبو الحسن علي الحسيني، دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانه، ص ١٧-١٨.

معاصرة ومنجزات قديمة، أو أمام أحداث ومقتضيات متجددة، بل ودوّنوا علوماً وآداباً، ووضعوا فلسفة مكان فلسفة، وتنظيمات أمام تنظيمات، ونظريات أمام نظريات، وكانوا في هذا العمل بارعين مقيمين للحجة على غيرهم، أوفياء لدينهم في أداء مسؤوليتهم.

فقد وجدوا حديث رسول الله ﷺ نبراساً لهم واسعاً، ومنوراً لهم الطريق الذي أراد الله تعالى منهم السلوك فيه، وكان الحديث الشريف بتوجيهاته المرشدة إلى ما فيه خير الإنسانية وفلاحها، والهادية إلى ما فيه تحقيق الإنسان لأغراضه الرشيدة، والمنيرة لطرق الخير للإنسان في مختلف أطوار حياته وجوانب سلوكه أوفق مرجع وأنجح مصدر، وبالاعتماد على الحديث الشريف استطاع علماء الدين الإسلامي حفظ هذا الدين من التغير والتبدل، وبذلك بقي سليماً ناصعاً مع أنه مر عليه أربعة عشر قرناً خلافاً لأديان أخرى، فقد وقع في كافتها تبدل بتبدل الزمان وتتابع الأجيال؛ وذلك لأن توجيهات أنبيائها ومشرعيها لم تبق محفوظة، بل لم تدون بتلك السعة والإحاطة بجوانب الحياة ومقتضيات العصور والأزمان كما حصل تدوين الحديث الشريف وحفظه على مر الزمان وتتابع الأجيال؛ وذلك لأن الله تعالى لما أراد لهذا الدين البقاء والاستمرار؛ سخر له رجالاً مهتمين به، عاكفين بدقة وأمانة على حفظه. ثم سخر له رجالاً قاموا باقتباس الهداية والتوجيه منه في كل ما اقتضته أطوار الحياة الإنسانية وأحوالها جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، وبلداً بعد بلد، فنجد أعداداً من هؤلاء الرجال الفطاحل حيناً في آسيا العربية، وحيناً في آسيا الغربية والوسطى، وحيناً في آسيا الجنوبية، وحيناً في إفريقيا الإسلامية، وحيناً في بلاد الغرب الأندلسية، إنهم استخرجوا من تراث الحديث الشريف الواسع المأمون علوماً متنوعة مما اقتضتها حياة المسلمين الفكرية والسلوكية والحضارية حتى الشؤون المادية من مالية وعملية كلها، فإنما نجد في هذه الأنحاء كلها هداية وتوجيهاً من الحديث الشريف.

فالحديث هو المعقل العظيم الذي حفظ هذا الدين عن طريق أحداث سيرة الرسول ﷺ وتوجيهاته الكريمة التي أحاطت بسائر أنحاء حياة المسلمين باستمرار، ويدل على ذلك

أن الآية الكريمة: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)^١ عندما نزلت في السنة الأخيرة من حياة خاتم أنبياء الله تعالى، تقرر بنزولها بأن الدين الإسلامي الذي رضي به الله تعالى للإنسان وأكمله؛ سيبقى إلى آخر عهد من عهود هذه الأرض، ويؤدي سائر مقتضيات الحياة الدينية والاجتماعية والسلوكية الثابتة منها والمتجمدة؛ لأن إكماله من رب العالمين وإعلانه برضاه به للمسلمين هو أمر يؤكد على جدارته في كل عصر ومصر، فإن الدين المختار فهو يستطيع أن يقبل التحديات، ويضع قضايا الحياة كلاً منها في محلها الجدير به، ويجعل الحياة سائرة مسايرة للأوضاع والأحوال التي تمر من خلالها، وقد أثبت هذا الدين في كتابه الكريم، وعلى ما شرحه وأوصى به رسوله الأمين عن طريق سنته وأسوة حياته الشريفة، فقد مضى على هذا الدين عصور وحقب، ومر من خلالها هذا الدين سالماً وغانماً، ناجحاً ومحفوظاً، وأعانه في ذلك الحديث الشريف في كافة مجالات حياة المسلمين ومقتضياتها، وسياصل الحديث الشريف هذه الإغاثة والإسعاف عن طريق دارسيه ومحققيه وعلماء أسراره الأعلام.

أهم مصادر ومراجع البحث:

- ١- ابن أبي شيبة أبي بكر عبد الله بن محمد، المصنف، تحقيق: كمال يوسف حوت، الرياض: مكتبة الرشد، ط١، ١٤٠٩هـ.
- ٢- أحمد بن حنبل الشيباني، المسند، القاهرة: طبعة بولاق الأميرية، ط٢، ١٣١٣هـ.
- ٣- أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني، السنن، الرياض: دارالسلام، ط١، ١٤٢٠هـ.
- ٤- البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٥، ١٤٢٨هـ.
- ٥- الترمذي أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى، الجامع، الرياض: دارالسلام، ط١، ١٤٢٠هـ.
- ٦- الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه النيسابوري "المستدرک علی الصحیحین"، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٤، ٢٠٠٩م.
- ٧- الطبراني، أبو القاسم، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الموصل: مكتبة العلوم والحكم، ط٢، ١٤٠٤هـ.

^١ المائدة: ٣.

- ٨- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوي، **المستند المختصر من السنن ينقل العدل عن رسول الله ﷺ**، الرياض: دارالسلام، ط١، ١٤١٩هـ.
- ٩- الندوي، أبو الحسن علي الحسيني، **رجال الفكر والدعوة في الإسلام**، دمشق: دار ابن كثير، ط٣، ١٤٢٥هـ.
- ١٠- الندوي، أبو الحسن علي الحسيني، **المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف**، دمشق: دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٤هـ.
- ١١- الندوي، أبو الحسن علي الحسيني، **دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانه، الهند: لكتو، الجمع العلمي الإسلامي**.
- ١٢- الندوي، أبو الحسن علي الحسيني، **المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف**، دمشق: دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٤هـ.

